آفة المعامل

من رأى العمّال في معامل الحرير ببلاد الشام وهم صفر الوجوه نحاف الابدان وعلم انهم يقضون نهارهم وبعض ليلهم في اماكن مزدحمة فاسدة الهواء قليلة النور والاجور التي يأخذونها لا تزيد على حاجاتهم اليوميّة يتضح لهُ ان المعامل آفة على العمال

وهذا الشر الذي دخل بلاد الشام وانحصر في معامل الحرير لانهُ لم ينشأ فيها معامل غيرها شائع في البلاد الاوربية والاميركية لكثرة المعامل فيها على اختلاف انواعها. وقد كنّا نظن انهُ في اميركا اخف وطأة منهُ في غيرها لما هو مشهور من انها جنّة العمال كما هي جنّة النساء لكن قامت في هذه الاثناء سيدتان اميركيتان وطافتا في المعامل وانتظمتا في سلك عمّالها حتى وقفتا على احوالهم تمامًا ثم ألّفتا كتابًا وصفتا فيهِ حالهم فيها وصفًا تقشعرّ لهُ الابدان. وقد مرّ المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة بهذا الكتاب وقدّر منهُ نفعًا عظيمًا وكتب لهُ مقدمة بخطّهِ لانهُ اذا ظهر الداء واتضح سهل علاجهُ.

اختارت احدى هاتين السيدتين مدينة بتسبرج الكثيرة المعامل فان فيها مئة الف عامل من الرجال ومئة الف عاملة من النساء والبنات ودخلت معملاً منها تُصنَع فيهِ المخلات وجعلت نفسها في عداد العمال ولم تُقبَل فيهِ كذلك الاَّ بعد الجهد وكتبت تقول عما عملتهُ في اليوم الاول "وقفت منتصبة على رجليَّ عشر ساعات متوالية ملأتُ فيها ٤٠٠٠ اناء بالمخللات وسددت ١٣٠٠ بالتلبيز". وبعد ان قضت اسبوعًا تعمل هذا العمل اخذت ترتقي في مصاف العمال شيئًا فشيئًا. وقد استنتجت مما رأتهُ بالاختبار في هذا المعمل ان اجرة المرأة مهما ارتفعت لا تزيد على اقل اجرة يعطاها الرجل. وان النساء تعمل الاعمال التي يترفّع عنها الرجال وان المرأة مهما برعت في عملها لا تزيد اجرتها على ريال في اليوم ولا تبلغ هذا الحد الاَّ بشق النفس وبعد ان تنهك قواها العضلية والعصبية

ثم انتقلت من معمل المخلل واستخدمت في معامل القمصان والخياطة باليد وقالت في وصفها وجدتُ الفتيات العاملات هناك يكثرن من الاعتناء بزينتهنّ وحسن بزتهنّ اما اطعمتهنّ ومساكنهنّ فمخالفة للقواعد الصحية وهنّ سريعات الاحساس خاليات من العواطف. وكثيرات منهنّ لسنَ في حاجة الى العمل في المعامل فقد قالت احداهنّ: "ان والدي يقدّم لي كل ما احتاج اليهِ ولكن ليس كل ما اطلبهُ". فهنّ يشتغلنَ ليحصلنَ ما يبذلنهُ في الدخول الى الاجتماعات العمومية والمراقص والمراسح. وبالغنَ في ضروب الزينة

والزخرفة فالمناطق الحريرية الملونة تحيط بخصورهن والشرائط الزاهية تتدلى من اعناقهن والرياش والعصافير والازهار تموج فوق برانيطهن والقنع تغطي وجوههن والكفوف البيضاء تستر ايديهن واكياس النقود الفضية تتدلى من فوق ثيابهن

ثم قالت هذا هو السبب الذي من اجله تذهب كثيرات من الفتيات الاميركيات ليعملن في المعامل طول نهارهن . ولهن رغبة شديدة في الذهاب الى مراسح التمثيل فيلبسن ما فوق طاقتهن من الثياب المزخرفة حتى يستلفت الناظر اليهن انهن يترددن على المراسح ليس تشوقاً لمشاهدة التمثيل بل ليتبارين بالازياء ومع انهن يكتسبن من الاجرة اكثر مما يكتسب امثالهن في انكلترا وغيرها من بلدان اوروبا فهن لا ينتفعن به حق الانتفاع

وذهبت السيدة الثانية الى معمل الاحذية في مدينة لين فرأت احوال العمال هناك لا تختلف كثيراً عما هي في المعامل المذكورة آنفاً . اما في معامل القطن في كارولينا الجنوبية فالمعيشة واحوال الحياة مما يقضي بالدهشة والرعب . فان العامل هناك ليس سوى رقيق ابيض قلما يفترق عن الرقيق الاسود . خذ مثالاً لذلك المعمل العظيم الدعو اكسلسيور الذي يعمل فيه نحو ثلاثة آلاف عامل . فانه مبني على رمال قاحلة وراءها القرية التي يقطنها العملة . وقد حلت الاوبئة في تلك القرية ضيفاً ثقيلاً لا تفارقها والاقذار والاوساخ تملأ الازقة والشوارع لعدم وجود من ينقلها فتنبعث منها رائحة كريهة تفشي منها النفس وتخدر الاعصاب . اما المعمل فبعيد عن القواعد الصحية في موقعه وكيفية بنائه وطرق المعيشة فيه . فالهواء الذي يتنفسه العملة مملوء بدقائق القطن وخيوطه الدقيقة وهم يتناولون السعوط من اكبرهم الى اصغرهم فتبرش افواههم وتسود اسنانهم . ويشكون من الامراض الرئوية كالسل والتهاب الرئة . واكثرهم ليسوا من المدن والقرى المجاورة بل يؤتى بهم من الاماكن البعيدة بواسطة المقدمين الذي يطغونهم ويعدونهم المواعيد الكاذبة حتى يأتوا بهم الى ذلك المعمل

والذين يعملون في معمل آخر الغزل يعيشون في هواء انقى من هواء معامل الغزل لخلوه من دقائق القطن الا ان الغزل يبقى هناك رطباً دائماً فيشكو كثير من العملة امراض القلب . وفوق ذلك فالملاريا تفتك بهم فتكاً ذريعاً

ويقوم الرجال والنساء والاولاد في الصباح من ابن خمس فصاعداً ويتقاطرون افواجاً الى المعامل ليقضوا نهارهم بالعمل والكدح ثم يعودون في المساء الى بيوتهم منهوكي القوى فيرتمون على فرشهم القذرة بثياب العمل وينامون الى الصباح . وياتي في الصباح رجل راكباً جواداً يجري عليه من بيت الى اخر يستخدمه اصحاب المعمل ليأتي بالمتأخرين الذين انهك قواهم التعب

فلازموا فرشهم ليستريحوا . يأتي فيقتلعهم من فرشهم ويضطرهم الى الذهاب للعمل . وترى اطفالاً يساقون الى المعامل ليصلوا فيها ثلاث عشرة ساعة كل يوم وعليهم ثياب قذرة رثة لا تتغير صيفاً ولا شتاء . فلا يذوقون لذة ايام الصغر ولا الايام المدرسية بل يغمرهم بحر من الشقاء والبؤس يعملون من الساعة السادسة صباحاً الى السابعة مساء ولا يستريحون الا ثلاثة ارباع الساعة عند الظهر يتناولون فيها طعامهم فلذلك تراهم منهوكين ابداً اذا انقطعوا دقيقة عن العمل وقعوا فيها في سبات عميق

ومساكن هؤلاء العملة اكواخ حقيرة لم تراعَ في بنائها اصول النظافة والصحة والراحة والمياه التي يشربونها قذرة يغطي وجهها غشاء كثيف وتكثر فيها جراثيم الحميات . وليس هناك ازهار تنعش رائحتها القلوب بل روائح الاقذار المتجمعة في الازقة والشوارع تملأ الفضاء . ولا مدارس للاولاد ولا حدائق للتنزه . والعامل الذي يستيقظ في الساعة الرابعة صباحاً ويعمل الى ما بعد مغيب الشمس لا يبقى فيه من النشاط والحياة الاَّ ما يرتمي به على وسادته الى الصباح التالي . والامراض واسعة الانتشار والموت كثير ولا تحتفي تلك الولاية باحصاء المواليد والوفيات

فلا غرابة اذاً ان تظهر الهيئة الوحشية القبيحة على وجوه اولئك الناس الذين يعملون تلك الاعمال الشاقة ويسكنون تلك الاكواخ الحقيرة القذرة المخالفة للصحة ويتناولون الطعام السخيف ويشربون الماء الفاسد . واذا دخلت فتاة او امرأة تلك المعامل وعليها شيء من ملامح الجمال اضطهدها النظار والمديرون حتى يقبح وجهها ويصير كوجه رفيقاتها . والزواج هناك لعبة والحب حلم والبيت بمعانيه الشريفة مفقود من عالم الوجود فليس للوالدين وقت يعتنون فيه باولادهم ويربونهم بل يستصحبونهم معهم الى المعامل من سن الخامسة والسادسة

وليس العامل في تلك المعامل الاَّ رقيقاً ابيض . والغريب ان العملة كثيرو اللطف والحنان ولم يزل فيهم بعض الاميال الشريفة فيحبون الازهار ويتشوقون الى الحصول عليها واستنشاق روائحها العطرية . ويحبون الموسيقى ولكن لا يسمعونها الاَّ نادراً . وفي ايام الاحاد يبقى اكثرهم نياماً في اكواخهم لانتهاك قواهم وعجزهم عن النهوض . وهناك حديقة مقفرة يذهبون اليها في بعض الاحيان

هذه حال بعض العمال كما وصفتها هاتان السيدتان في كتابهما . ولا شك في انهُ متى اطلع جمهور الاميركيين على حقيقة الامر ينهضون نهضةً واحدة ليدافعوا عن اخوانهم وينصفوهم من اصحاب المعامل الذين يسوقونهم سوق الانعام . وعسى ان لا ينتشر داء المعامل عندنا لانهُ مهما كثرت فائدتها لاصحابها فضررها بالعمال يفوق كل فائدة